

تفسير ابن كثير

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهِينٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ ^ص
قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ^ج إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ^ج تَعَلَّمَ مَا
فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ^ج إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ

هذا أيضا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم ، - عليه السلام - ،
قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إهين من دون الله : (وإذ قال الله يا عيسى
ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إهين من دون الله) ؟ وهذا تهديد للنصارى
وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد . هكذا قاله قتادة وغيره ، واستدل قتادة على ذلك
بقوله تعالى : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) وقال السدي : هذا الخطاب والجواب
في الدنيا . قال ابن جرير : هذا هو الصواب ، وكان ذلك حين رفعه الله إلى سماء الدنيا .
واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين : أحدهما : أن الكلام لفظ المضى . والثاني : قوله : (إن
تعذبهم) و (إن تغفر لهم) وهذان الدليلان فيهما نظر ؛ لأن كثيرا من أمور يوم القيامة
ذكر بلفظ المضى ، ليدل على الوقوع والثبوت . ومعنى قوله : (إن تعذبهم فإنهم عبادك)

الآية : التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله ، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه ، كما في نظائر ذلك من الآيات . والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر ، والله أعلم : أن ذلك كائن يوم القيامة ، ليدل على تهديد النصارى وتقريرهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة . وقد روي بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله ، مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة ، قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم ، ثم يدعى بعيسى ؛ فيذكره الله نعمته عليه ، فيقربها ، فيقول : (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك) الآية [المائدة : 110] ثم يقول : (أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) ؟ فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيسألون ، فيقولون : نعم ، هو أمرنا بذلك ، قال : فيطول شعر عيسى ، - عليه السلام - ، فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده . فيجاثيهم بين يدي الله ، عز وجل ، مقدار ألف عام ، حتى ترفع عليهم الحجة ، ويرفع لهم الصليب ، وينطلق بهم إلى النار " ، وهذا حديث غريب عزيز . وقوله : (

سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق (هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل ،
كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن
طاوس ، عن أبي هريرة قال : يلقي عيسى حجته ، ولقاه الله في قوله : (وإذ قال الله يا
عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) ؟ قال أبو هريرة عن
النبي - صلى الله عليه وسلم - فلقيه الله : (سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق
(إلى آخر الآية . وقد رواه الثوري ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن طاوس ، بنحوه
وقوله : (إن كنت قلته فقد علمته) أي : إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب ،
فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته ; ولهذا قال : (تعلم ما
في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب)